دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 33، (ملحق)، 2006

آداب الضيافة في الشعر الجاهلي

حمدي محمود منصور*

ملخص

يتناول هذا البحث الضيافة في العصر الجاهلي، كما صورها الشعراء الجاهليون. وقد انعقد البحث على محاور رئيسة هي: مآدب الضيافة من جفان وقدور، وهداية الضيف بإيقاد النار، واستنباح الكلاب، ثم استقبال الضيف والبشاشة في وجهه، والتغني بإكرامه وقراه، ومدح من يكرمه ويستضيفه، وأخيراً هجو من يبخل عليه، ويضن بزاده ويشيح بوجهه عنه.

وخلص البحث إلى أن الشعر الذي قيل في الضيافة وحفل بمفرداتها، كان صادقاً في رؤية واقع الحياة، وتقديمها في صورتها الحقيقية؛ فليس العرب جميعاً كرماء أجواداً، ولا هم جميعاً أشحاء بخلاء، وأن الضيافة كانت ضرورة اجتماعية، تمليها ظروف الحياة الطبيعية والإنسانية، وظلت لوناً من ألوان التعاطف الإنساني العميق، وأن الشعراء أعلوا من شأنها في مواجهة صروف الدهر وقهر الفناء، وأن القرى كان انتصاراً للحياة وقهراً لعوامل الفناء.

الكلمات الدالة: آداب الضيافة، الشعر الجاهلي، القِرى.

المقدمة

فضائل العرب التي كانوا يفخرون بها في جاهليتهم كثيرة، إلا أنه لم تكن عندهم في جزيرتهم خصلة تفوق خصلة الكرم، التي بعثتها في نفوسهم حياة الصحراء القاحلة، وما يعتورها من إجداب وإمحال، وما تقوم عليه حياتهم من ترحال وتجوال(1)؛ فالطبيعة القاسية لقّنت إنسانها مهما كان فقيراً درساً في الإكرام، وأن عليه تقديم ما عنده لمن يأتيه من ضيف أو غريب ليضيفه، إنقاذاً لحياته من قحط البادية ومن شحها، فليس في البادية كما يقول جواد علي: "ملجأ يلجأ إليه الفرد غير الخيام المضروبة هنا وهناك، ملاجئ مهما قيل فيها، لكنها تبقى قوارب النجاة"(2).

فالشعور المشترك عند عرب الجاهلية في جزيرتهم بضعفهم وعجزهم تجاه طبيعة بلادهم القاسية، وقفارهم العنيدة، أنشأ فيهم الإحساس بحاجة ماسة مقدسة إلى الضيافة(3)، التي فرضتها ظروف الحياة في بيئة صحراوية شاقة كي تمتد الحياة ويتواصل البقاء، فتغدو الصحراء بعد أن كانت مهلكة بطبيعتها وظروفها، آمنة بكرم إنسانها، متآخية بتكافل أبنائها في هذا الجانب، فينجو المرء فيها من عوامل الجوع والفقر، ويأمن غوائل الهلاك والفناء، فينتصر مبدأ الحياة والبقاء، أمام عوامل الزمن وصروف الدهر.

ينضاف إلى هذا ولع العرب في العصر الجاهلي بحسن الأحدوثة، وشغفهم بطيب الذكر، وميلهم إلى حب الثناء، طلباً للمجد والسيادة، وحفظاً لأحسابهم وأنسابهم، وخوفاً من مذمة الناس، وبهذا كله يصبح الكرم سلاحاً في مواجهة عوامل الفناء وانتصاراً للحياة أمام غوائل الدهر وسطوة الزمن، وهنا لا بد من أن أقرر أنني لا أود الحديث في هذه الدراسة عن الكرم وبواعثه ومظاهره وشعرائه، فهو موضوع واسع متشعب، كفاني الحديث فيه غير باحث(4)، وإنما الغرض من هذه الدراسة منصرف إلى موضوع الضيافة في العصر الجاهلي.

مآدب الضيافة

تعددت مآدب العرب في العصر الجاهلي، وكثرت أسماؤها، وتباينت بتباين المناسبة التي تُقدم فيها، فمنها: الوليمة والوضيمة والنقيعة والنقرى والقرى... إلى غير ذلك من المآدب(5)، وقد أكثر الشعراء الجاهليون من ذكرهم القرى في أشعارهم، وتغنوا بمآدب الضيافة التي كان يقيمها الأجواد للضيفان الذين يطرقونهم كل حين.

جاء في لسان العرب لابن منظور: ضفت الرجل ضيفاً وضيافة وتضيفته: نزلت به ضيفاً وملت إليه، وضفته وتضيفته: طلبت منه الضيافة، وأضفته وضيفته: أنزلته عليك ضيفاً وأملته إليك وقربته، والضيف: المضيف يكون للواحد وللجمع، ويجمع أضياف وضيوف وضيفان(6)؛ فالضيف للجمع والمفرد، والمراد به من ينزل على غيره ويميل إليه طلباً لقراه، أو من ينزله الآخر عليه ويميله إليه، ويقربه منه لاستضافته وإطعامه.

---

* قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، الجامعة الأردنية. تاريخ استلام البحث 2005/5/22، وتاريخ قبوله 2005/12/5.

© 2006 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

الجفان والقدور

ركز الشعراء الجاهليون على ذكر رموز للضيافة والولائم لا تكون إلا بها، كأدوات الطعام وطبخه من جفان وقدور، والجفنة كما ذكر ابن منظور: "أعظم ما يكون من القصاع، والجمع جفان وجفن"(7)، والقصعة: الضخمة التي تشبع العشرة، وجمعها قصاع وقصع(8)، وهي تتخذ من الشيزى وهو خشب أسود، وقيل إنما يتخذون الجفان من خشب الجوز فتسود من الدسم(9).

قال زهير بن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان وقومه، ويذكر جفانهم المصنوعة من الشيزى(10):

إذا ما غشوا الحداد فرق بينهم
جفان من الشيزى وراء جفان(11)

وذكر أمية بن أبي الصلت أن جفان ابن جدعان مصنوعة من الشيزى، قال(12):

إلى ردح من الشيزى ملاء
لباب البر يلبك بالشهاد

وكذلك جفان لبيد بن ربيعة كانت مصنوعة من الشيزى(13).

ويشيد السفاح بن بكير اليربوعي بسعة القصاع وعمقها التي كان يقدمها يحيى بن شداد لضيوفه، وأنها قصاع مصنوعة من خشب الشيزى، وهي مملوءة باللحم، فلا يخرج الضيف من بيته إلا وهو شبعان ريان، يقول(14):

والمالئ الشيزى لأضيافـه
كأنها أعضاد حوض بقاع
لا يخرج الأضياف من بيته
إلا وهم منه رواء شباع

فالمادة التي تتخذ منها الجفان هي الشيزى، وهو خشب أسود كما أسلفنا، أما القدور فتصنع من الصيدان –النحاس- والمغارف تتخذ من خشب النضار، يقول أبو ذؤيب الهذلي(15):

وسود من الصيدان فيها مذانب
نضار إذا لم نستفدها نعارها

ويقول كعب بن زهير(16):

وقدراً تغرق الأوصال فيه
من الصيدان مترعة ركودا

وجفان الأجواد وقدورهم مترعة باللحم، واسعة كالجوابي أو الأحواض، يقول طرفة بن العبد واصفاً قدور قومه بذلك(17):

بجفـان تعتـ ـري نادينـا
من سديف حين هاج الصبر
كالجـوابي لا تني مترعـة
لقرى الأضياف أو للمحتضر

وعظم جفان المحلق ممدوح الأعشى وسعتها يدفع عن الممدوح الذم؛ فهي جفان مترعة، وقدور ممتلئة بالسديف واللحم، تدفع النقيصة وتنفي البخل، يقول(18):

نفى الذم عن آل المحلق جفنة
كجابية السيح العراقي تفهق
يروح فتى صدق ويغدو عليهم
بملء جفان من سديف يدفق
وعاد فتى صدق عليهم بجفنة
وسوداء لأياً بالمزادة تمرق

ويعلق شارح الديوان بقوله:" صان آل المحلق أعراضهم بالجود، ونفى عنهم الذم جفنة ضخمة تقدم للضيفان، كأنها حوض الماء يمده نهر العراق، ويغدو عليهم فتى مفضال بجفان مملوءة من شحم السنام يتدفق عليهم بغير انقطاع "(19).

والجفنة رحاب واسعة، سوداء داكنة، يغور فيها اللحم، ويسيل الدسم على جنباتها، ويسمع لذلك الغلي والفوران صوت كصوت الغرغرة، يقول الشاعر(20):

فباتت رحاب جونة من لحامها
وفوها بما في جوفها يتغرغر

وجفنة ابن عمار الطائي قتيل النعمان بن المنذر، واسعة ضخمة كحوض الإبل، يقصدها الضيوف، ويأتيها العفاة، يقول(21):

يا جفنة كإزاء الحوض قد هدموا
ومنطقاً مثل وشي اليمنة الحبرة

ونلحظ أن الشعراء يكثرون من تشبيه الجفان والقدور بالأحواض في السعة والضخامة، لأن في هذا إشارة إلى كرم صاحبها وجوده، وكثرة ضيوفه وقصاده، يقول الحطيئة في رثاء علقمة بن هوذة القريعي(22):

يا جفنة ترك بن هوذة خلفـه
ملأى لصحبته كحوض المقتري
كعريضة الشيزى يكال فوقها
شحم السنام غداة ريح صرصر

وعمرو بن قميئة في قصيدته التي مطلعها:

أرى جارتي خفت وخف نصيحها
وحب بها لولا النوى وطموحها

يصف قدور قومه بالسعة، ويشبهها بالحياض التي تردها الإبل، وهي قدور حافلة باللحم والمرق، يثوب إليها الضيوف من كل جانب عند كلب الزمان واشتداد الحاجة، يقول(23):

إذا عدم المحلوب عادت عليهم
قدور كثير في القصاع قديحها(24)
يثوب عليهم كل ضيف وجانب
كما رد دهداة القلاص نضيحها

فالضيوف يصيرون إلى قدوره كما تصير الإبل إلى الحوض.

ويتفرد أبو الدرداء في نعت سعة قدوره، ويبالغ في ذلك، فهي كجوف الليل، وهي ضخمة عميقة، تستوعب كثيراً من اللحم، حتى ان الفيل لو وضع داخلها لطفا على وجهها لعمقها وكبرها، يقول(25):

وقدر كجوف الليل أحمشت غليها
ترى الفيل فيها طافياً لم يفصل

وهذه القدور شبيهة بقدور عبد الله بن جدعان، فقد ذكر أبو عبيدة أنه كان له جفنة يأكل منها القائم والراكب، وذكر غيره أنه وقع فيها صبي فغرق(26).

وتوصف القدور والجفان لعظمها وسعتها، بأنها جوفاء وذات ضبابة، لما ينعقد حولها من دخان النار، ولما يتصاعد منها من بخار الغلي، وهي سوداء لكثرة اعتلائها الموقد، ومكوثها على الأثافي، يقول الشاعر(27):

نصبنا له جوفاء ذات ضبـابة
من الدهم مبطاناً طويلاً ركودها
فإن شئت أثويناك في الحي مكرماً
وإن شئت بلغناك أرضاً تريدها

وجفان أمية بن أبي الصلت كأنها الأحواض، ملئت بلحوم النوق وشحومها، وهي جفان كثيرة العدد، تتلاحق عند نقلها وإنزالها عن النيران، لإخراج ما فيها على الثريد الذي هشم لقرى الأضياف، يقول(28):

المطعميـ ـن الشحـ ـم فو
ق الخبز شحماً كالأنافح(29)
نقل الجفـ ـان مع الجـ ـفا
ن إلى جفان كالمنـ ـاضح
ليست بأصفـ ـار لمـ ـن
يعفو، ولا رح رحـ ـارح
للضيف ثم الضيف بعـ
ـد الضيف، والبسط السلاطح

والجفنة سوداء دهماء لكثرة استعمالها كما ينعتها النابغة(30):

له بفناء البيت ضخماء جونة
تلقم أوصال الجزور العراعر

وكذلك هي جفان الأفوه الأودي، سوداء واسعة، يقول(31):

فينا لثعلبة بن عوف جفنة
يأوي إليها في الشتاء الجوع
ومذانب ما تستعار وجفنة
سوداء، عند نشيجها ما ترفع

ويرسم أبو ذؤيب الهذلي صورتين سمعيتين للقدور، الأولى حين يشبه نشيج القدور بأصوات الضرائر اللواتي غلت في صدورهن الغيرة الفاحشة، فأخذن بكثير من جيشان الصدر والهمهمة المكبوتة التي لا تفصح عن مكنونها بالصراخ والعويل، والأخرى حين شبه نشيج القدور برغاء الإبل التي أبعدت عنها صغارها، فحنت إليها حنيناً فار في الصدور، يقول(32):

لهن نشيـج بالنشيـل كأنهـا
ضرائر حرمي تفاحش غارها
إذا استعجلت بعد الخبو ترازمت
كهزم الضؤار جر عنها حوارها

وعلى نحو من هذا؛ ما نجده عند أمية بن أبي الصلت في حديثه عن قدور عبد الله بن جدعان؛ فصوت نشيج القدور كصراخ الضرائر تارة، أو كهدير الفحول من الإبل تارة أخرى، أو كجلبة الطائفين حول البيت من هاجر وعرينة تارة ثالثة، وذلك لما ازدحم في القدور من أجزاء الجزور الضخمة، ولما حش تحتها من النيران المتأججة، يقول(33):

فقـدوره بفنـ ـائـه
للضيف مترعة زواخر
تبدو الكسور من انضرا
ج الغلي فيها والكراكر
فكـأنهـن بما حميـ
ـن وما شحن به ضرائر
وكأنما يدعى عريـ
ـنة في طوائفها وهاجر
زبداً وغرغرة كقر
قرة الفحول إذا تخاطر

وقد يكني الشعراء عن القدور والجفان باستخدام بعض صفاتها؛ كالرح والمغرغرة وغير ذلك، يقول طرفة بن العبد(34):

ترى الرح من شيزى لدى كل مجلس
كحوض الأضى من بعد شبع المعارك

ويقول عنترة العبسي(35):

إذ لا تزال لكم مغرغرة
تغلي وأعلى لونها صهر

ويقول لبيد بن ربيعة(36):

وإذا شتوا عادت على جيرانهم
رجح توفيهـا مرابع كوم
لا يجتويها ضيفهم وفقيرهم
ومدفع، طرق النبوح، يتيم

ويكثر الشعراء الجاهليون من الحديث عن قطع اللحم التي تطبخ في القدور، ويعدون ضخامتها من مظاهر الكرم وعلامات المبالغة في قرى الضيوف، فهذا حجر بن خالد يفخر بإكرام قومه للضيوف، وبقدورهم التي تغلي بقطع اللحم، وأنهم يقومون بأنفسهم على ذلك خدمة للضيف، واكتساباً للحمد، فهم عندما يقلبون قطع اللحم في قدورهم يسمع لها صوت لعظم القطع واتساع القدور، في حين ان قدور الآخرين صغيرة ضيقة، لا فائدة فيها، ولا منفعة ترتجى منها، فأحفظ هذا التيه في الفخر عمرو بن كلثوم مما دفعه إلى لطم حجر في مجلس الملك، إلا أن حجراً ما فتئ أن اقتص منه، وأجاره الملك، يقول(37):

تدهدق بضع اللحم للباع والندى
وبعضهم تغلي بذم مناقعه(38)

وتبدو قطع اللحم في قدور حاتم وكأنها رؤوس القطا، وكأن أعضاء الجزور سواعد النساء اللواتي كشفن عن أيديهن، يقول حاتم(39):

شآمية لم تتخذ لدخامس الـ
طبيخ، ولا ذم الخليط المجاور(40)
يقمص دهداق البضيع كأنه
رؤوس القطا الكدر الدقاق الحناجر
كأن ضلوع الجنب من فورانها
إذا استحمشت أيدي نساء حواسر
إذا استنزلت كانت هدايا وطعمة
ولم تختزن دون العيون النواظر
كأن رياح اللحم حين تغطمطت
رياح عبير بين أيدي العواطر

لله در حاتم في كرمه وجوده، ما أسخى نفسه وأبعد همته، فقد "استطاع أن يعطي لكل جانب من جوانب الكرم ما يضيء زواياه، ويمنحه خصائصه، ويرسخ أبعاده في كل نفس"(41).

وقدور عبد الله بن جدعان كثيرة العدد، مملوءة بالخيرات، يدعو إليها داع بمكة المكرمة، وآخر ينادي الضيفان من فوق ناديه، أن هلموا إلى قرى ابن جدعان، يقول أمية بن أبي الصلت فيه(42):

لـه داع بمكـة مشمعل
وآخر فوق دارته ينادي(43)

وقدور ممدوح المثقب العبدي مترعة ممتلئة، يقول(44):

مترع الجفنة، ربعي الندى
حسن مجلسه غيـر لطم

ويملأ لبيد قدره من شحم السنام(45):

فلقد أعوص بالخصم وقد
أملأ الجفنة من شحم القلل

وتغول قدوره - لبيد - ماله، وتأتي عليه، فهو يملؤها باللحم والشحم، فإذا ما فارت، سال الدسم على جوانبها، يقول(46):

ولكن مالي غاله كل جفنة
إذا حان ورد أسبلت بدموع

والجفان والقدور يتوارثها الأبناء عن الآباء الذين توارثوها عن الأجداد، إشارة إلى أن مكارمهم متأصلة فيهم، وأن خدمة الضيف وقراه، والقيامة على شأنه، يتوارثونه كابراً عن كابر، يقول النابغة الذبياني في آل الجلاح(47):

بقية قدر من قدور تورثت
لآل الجلاح كابراً بعد كابر

ويقول لبيد بن ربيعة مبيناً أن إطعام الضيف وإكرامه، توارثه عن أجداده وآبائه، الذين ضمنوا بقدورهم الواسعة، وجفانهم الضخمة قرى الضيفان، وعدوا ذلك واجباً عليهم، وحقاً لضيوفهم، ولهذا فقدورهم منصوبة دائماً، تفور رغوتها، ويسيل دسمها في أشد الأيام برداً وأكثرها جفافاً وصقيعاً، فالمضيف ينتصر لأخيه الضيف في مواجهة قسوة الزمن وصروف الدهر، لأنه يرى أن إنقاذ أخيه الإنسان حق واجب عليه، يقول(48):

وأعطوا حقوقاً ضمنوها وراثة
عظام الجفان والصيام الحوافلا
توزع صراد الشمال جفانهم
إذا أصبحت نجد تسوق الأفائلا

وقدور الأجواد وجفانهم لا تستر دون القرى فهي مبرزة في العراء، فهذا عوف بن الأحوص يبرز قدره للعفاة ولا يسترها، وهي مترعة باللحم، لا ينفك الضيفان يقصدونها في كل وقت، وبخاصة عند اشتداد البرد، وكلب الزمان، لأنها كالأم الرؤوم ؛ تقدم لهم الطعام والدفء معاً، يقول عوف(49):

إذا احمر آفاق السماء وأعصفت
رياح الشتاء واستهلت شهورها
ترى أن قدري لا تزال كأنهـا
لذي الفروة المقرور أم يزورها
مبرزة، لا يجعل الستر دونهـا
إذا أخمد النيران، لاح بشيرهـا

ويبرز حاتم قدوره للضيوف، فيقيمها هناك في الفضاء، لا

يحجبها من أحد، يقول(50):

وما تشتكي قدري إذا الناس أمحلوا
أوثفها طوراً، وطوراً أميـرها
وأبرز قدري بالفضاء، قليلهـا
يرى غير مضنون به وكثيرها

بل يذهب إلى حد تحريم الطعام على نفسه، إن سترت زوجه قدره، ويأبى إلا أن تكون قدره مكشوفة للضيوف، غير مخفية ولا مستورة، يقول(51):

لا تستري قدري إذا ما طبختها
علي إذن ما تطبخين حـ ـرام

وكان لحاتم فيما يبدو مجموعة من القدور، ولا غرابة في ذلك مع ما شهر به من الكرم، حتى ضرب به المثل فقيل: "أجود من حاتم"(52)، فقد ذكر الزبير بن بكار أربعة منها بأسمائها، فقال: "وكانت قدوره التي يطبخ فيها الجزور من نحاس عظاماً، لا تزول عن الأثافي، ولها أسماء، فاسم إحداهن ثفال، والأخرى مشبعة، والأخرى ربلة، والأخرى هواد"(53).

ولهذا فقدور الأجواد لا تذم، وأفعال أصحابها لا تنتقص، فممدوح زهير هرم بن سنان، يقري الضيف، ويطعم الطعام في الشدة، يقول زهير(54):

ومرهق النيران يحمـد في
اللأواء، غير ملعـن القـ ـدر

والضيف لا يذم قدر ممدوح أبي ذؤيب الهذلي(55):

ألفيته لا يذم الضـ ـيف جفنته
والجار ذو البث محبو وممنوح

أما قدور المرثي فقد كانت منصوبة للضيوف والعفاة والمحتاجين، وبموته ضاع هؤلاء وفقدوا معيلهم؛ فهذه هند بنت أثالة تبكي النضر بن الحارث وترثيه، فلا تجد أفضل من قراه الضيف، وإطعامه الأيتام في ليالي الشتاء الباردة، تذكره بها، فبموته فقد هؤلاء الكثير، وتشتتت قدور المرثي التي طالما كانت تفور وتغلي لما يحشه تحتها من حطب جزل، تقول(56):

عبيدة فابكيه لأضياف غربـة
وأرملة تهوى لأشعث كالجـ ـذل
وبكيه للأقوام في كل شتـ ـوة
إذا احمر آفاق السماء من المحل
وبكيه للأيتام والريح زفـ ـزف
وتشتيت قدر طالما أزبدت تغلي
فإن تصبح النيران قد مات ضوؤها
فقد كان يذكيهن بالحطب الجزل
لطارق ليل أو لملتمس القـ ـرى
ومستنبح أضحى لديه على رسل

وبموت النعمان بن المنذر فقد الضيوف جفاناً كثيراً ما قصدوها، وقرى طالما أطعموه، ومجالس طالما نعموا فيها، وبموته "أين الذين يحضرون جفانه"؟(57) وصخر بن الشريد "ضخم الدسيعة"(58) و"جفنته تغدو غداة الريح أو تسري"(59) وهو "نعم رب النار والقدر"(60).

وقد لا يذكر الشعراء القدور والجفان مباشرة، إنما يكنون عنها كقول قبيصة الجرمي، مبيناً أن أهون الأموال هلاكاً: "ما نصبت له الأثافي"(61) أو هي "راكدة عتبى طويل صيامها"(62) كما يقول زيد بن حصين "وترى قدره للضيف ملآن مترعاً"(63) أو هي "تشقى بها الجزر"(64) أو "آفة الجزر"(65)، أو "تشقى بها النيب والجزر"(66)، أو هي "سوداء سفعاء، وللكمت أروى للنزيل وأشبع "(67) أو "ضخماء مملوءة"(68) أو "دهماء جونة"(69) أو "كحوض الأضى"(70) أو "كجابية السيح العراقي"(71).

وخلاصة القول ان القدور والجفان، تظل عند شعراء العصر الجاهلي ترمز إلى الجود وكرم الضيافة، وقرى الضيفان ورفدهم، وأكثر الشعراء من نعتها بالضخامة والسعة من حيث الحجم، والسود والجون من حيث اللون، لأن في ذلك إشارة إلى كثرة الضيف وجود المضيف، فهي كما قال لبيد(72):

إن القدور لواقـ ـح
يحلبن أمثل ما رعينا

هداية الضيف

الجزيرة العربية بلاد واسعة، تمتد صحاريها المقفرة امتداد البصر، وتنساح فجاجها مد الأفق، مما يجعل الاهتداء لمسالكها وتبين سبلها ضرباً من المستحيل، ولهذا فقد "شغلت قضية الاهتداء في الصحراء الجاهلي كثيراً"(73)، ومن هنا اعتنى الجاهليون بالقيافة والأثر على الرمال، وتنبهوا للأنواء والنجوم، بدافع الحاجة إلى معرفة كل ما يمكن أن يساعدهم على الاهتداء في صحرائهم الواسعة، يقول الجاحظ: "لأن كل من كان بالصحاصح الأماليس، حيث لا امارة ولا هادي مع حاجته إلى بعد الشقة... مضطر إلى التماس ما ينجيه ويؤديه"(74)، ولكثرة التنقل والتجوال، والسفر والارتحال، هناك كثيرون يضلون السبل، ويفقدون الطرق، فيسير الواحد منهم على غير هدى، في صحراء واسعة مهلكة، يكثر آلها الخادع، وسرابها اللامع، مما يجعل المرء في مسيس الحاجة إلى الاهتداء لأي قبيل يستضيفه، أو حي يستنزله، أو شخص

يهديه السبيل، ولهذا اتخذ الجاهلي وسائل لهداية الضيف، منها:

أ- نار القرى

تحدث الجاحظ في كتابه "الحيوان" عن نيران العرب، وذكر منها نار القرى، وذكر أنها "النار التي ترفع للسفر ولمن يلتمس القرى"، ورأى أن هذه النار "مذكورة على الحقيقة لا على المثل"(75)، وذكر النويري في "نهاية الأرب" نيران العرب، وعدد منها أربع عشرة ناراً، منها نار القرى، فقال: "نار القرى، وهي من أعظم مفاخر العرب، كانوا يوقدونها ليالي الشتاء، ويرفعونها لمن يلتمس القرى، فكلما كانت أضخم وموضعها أرفع كانت أفخر، وهم يتمادحون بها"(76).

وقد أكثر الشعراء من ذكر نيران القرى في أشعارهم، وجعلوها رمزاً للضيافة وإكرام النزيل، وذكروا أن من علامات الجود أن توقد في ليالي الشتاء الباردة، حين تعوي الريح الجافة، ويشتد البرد، فلا يستطيع الكلب أن يخرج من وجاره، وتجمد الزواحف في جحورها في بيات شتوي طويل، يقول عمرو بن الأهتم(77):

وليلة يصطفي بالفرث جازرها
يختص بالنقرى المثرين داعيها
لا ينبح الكلب فيها غير واحدة
من العشاء ولا تسري أفاعيها
رفعت ناري على علياء مشرفة
يدعى بها للقرى، والحق ساريها

ويقول عوف بن الأحوص(78):

رفعت له ناري فلما اهتدى بها
زجرت كلابي أن يهر عقورها

ويطلب حاتم الطائي إلى موقدي ناره أن يشباها عالياً، ليتكفل بهداية الضيف والساري(79):

فيا موقدي ناري ارفعاها لعلها
تضيء لسارٍ آخر الليل مقتر

ويصور لنا المثقب العبدي معاناة ضيف تاه في مجاهل الصحراء، وأخذ يتخبط في غياهب الليل، لا يهتدي طريقاً، ولا يعرف سبيلاً، ومما زاد الأمر وعورة أنها كانت ليلة ماطرة باردة؛ فما كان من المثقب إلا أن طلب إلى موقدي ناره أن يشباها ويرفعا سناها، وزادت توهجها ريح عاصف هبت تلك الليلة، حتى بدت النار لذاك الضال كوكباً في السماء، فأكذب نفسه، وما كان يصدق أنها نار بشر، وبهذا صور الشاعر الحال التي كان عليها الضيف، فهو في صراع عنيف مع قسوة الزمن، وظروف الطبيعة المهلكة، وهو بحاجة إلى من ينقذه وينتصر لحياته ضد موت محقق، فهو بحاجة إلى الأمان والطعام والدفء، فلما تيقن أنها نار حقيقية، أخذ عزمه يشتد، ونشاطه يتجدد، حتى بلغها، فوجد عندها من يستقبله أحسن استقبال، ويقريه أطيب قرى، يقول المثقب(80):

وسار تعناه المبيت فلم يدع
له طامس الظلماء والليل مذهبا
رأى ضوء نار من بعيد فخالها
لقد أكذبته النفس أن كان كوكبا
فلما استبان أنها آنسية
وصدق ظناً بعد ما كان كذبا
رفعت له بالكف ناراً تشبها
شآمية نكباء أو عاصف صبا
وقلت ارفعاها بالصعيد كفى بها
مناد لسار ليلة إن تأوبا
فلما أتاني والسماء تبله
فلقيته؛ أهلاً وسهلاً ومرحبا

وعلى نحو من هذا صنع هبيرة بن أبي وهب؛ إذ أوقد نيرانه في ليلة قحط وبرد من شهر جمادى، فباتت نيرانه تتوهج كالبرق، يدعو إليها الضيفان والعفاة، فالشاعر بصنيعه هذا ينتصر للحياة ضد عوامل الهلاك والفناء، يقول(81):

وليلة من جمادى ذات أندية
جربا جمادية قد بت أسريها
لا ينبح الكلب فيها غير واحدة
من القريس، ولا تسري أفاعيها
أوقدت فيها لذي الضرا جماجمة
كالبرق ذاكية الأركان أحميها
أورثني ذلكم عمرو ووالده
من قبله، كان بالمشتى يغاليها

ويدعو مضرس بن ربعي ضيفه بضوء ناره، في ليلة باردة كسا الصقيع فيها وجه الأرض من شدة البرد، يقول(82):

وإني لأدعو الضيف بالضوء بعدما
كسا الأرض نضاح الجليد وجامده

وفي ليلة مظلمة انكدرت نجومها، فأصبحت طخياء، يشب معقر الأزدي ناره، ويرفع قبساً منها بكفه، يقول(83):

رفعت له بالكف ناراً يشبها
على المجد معروف بها ما يريمها

ويرفع عدي بن زيد ناره على ربوة من الأرض، لتكون علماً دالاً لضال أو مسافر(84):

ولرفعي على الرباوة ناري
علماً للمضل، والليـل داج

ويقول الشاعر الحماسي(85):

حضأت له ناري فأبصر ضوءها
وما كان لولا حضأة النار يبصر
دعته بغير اسم هلم إلى القـرى
فأسرى يبوع الأرض والنار تزهر

ويمتدح الشعراء أولئك الأجواد الذين يوقدون نيرانهم في الظروف القاسية، منتصرين بصنيعهم هذا لمبدأ الحياة، ضد الموت والهلاك، منقذين أخوة لهم كادت الطبيعة أن تفنيهم، يقول امرؤ القيس في طريف بن مالك(86):

لنعم الفتى تعشـوا إلى ضـوء ناره
طريف بن مال ليلة الجوع والخصر
إذا البازل الكومـاء راحت عشيـة
تلاوذ من صوت المبسين بالشجـر

ويقول الأعشى في المحلق(87):

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة
إلى ضوء نار في يفاع تحرق
تشب لمقـرورين يصطـليانها
وبات على النار الندى والمحلق

والمرثي كان يوقد ناره، ويرفع سناها، منتصراً للحياة، ومنقذاً أخاه الإنسان، يقول ابن يزيد بن جعثم العبسي في رثاء أبيه(88):

كأن لم يقـل يوماً يزيد بن جعثم
لنار الندى ارفع سنـاها وأوقـد
واذك سنا نار الندى علّ ضوءها
يجيء بمقـو أو طـريد مشـرد
فباتت على علياء نار ابن جعثم
تشب لغـوري وآخـر منجـد
وبات الندى والجود يصطليانها
حليفي كريم واجد غير مجحـد

وبموت عبيدة بن الحارث مات ضوء ناره(89).

ويظل النشز العالي، والحزن المرتفع، واليفاع الشامخ، أفضل الأمكنة التي توقد عليها نيران القرى، فممدوح الأعشى يهدي ضيوفه لـ "ضوء نار في يفاع تحرق"(90)، وممدوح الحطيئة يوقد نيرانه " فوق اليفاع"(91)، ويشبها حماس بن ثامل "في رأس صمد"(92).

وقد توقد النار بعود الطيب(93) وبالغار والهندي(94)، ويعلق البطليوسي على هذا بقوله: "إن الشعراء إذا أرادوا مدح موقد النار، وصفوه بأنه يوقدها بالقطر والمندل والغار، ونحوها من النبات الطيب"(95)، ويرى الحوفي في ذلك " نوعاً من الترف وإظهار المقدرة، والتباهي بالثراء، ورغبة في أن يشموا هم رائحته الطيبة"(96).

وستر النار وإخفاء ضوئها يعرض للهجو، يقول المرقش في قوم يصف نارهم بالضؤلة، وأن دخانها يخرج من خلال الستر(97):

ويخرج الدخان من خلل الـ
ستر كلـون الكوذن الأصحم

ويستخدم الشعراء أفعالاً دالة على حرص ممدوحيهم على استمرار توهج النار واشتعالها (أوقد، اذك، شب، ارفع...)(98)، وأحياناً يسندون الأفعال إليهم (رفعت ناري، حـضأت له...)(99)، وأحياناً يذكرون صفاتها فهي (صفراء وشقراء مثل الفجر، وكميت ومشبوبة...)(100).

وتظل النار تدعو الضيوف إلى أهليها، كما يقول عبد القيس بن خفاف(101):

ونار دعوت بها الطارقين
والليل ملق عليها سـدولا

ب- استنباح الكلب

لم تكن النار لتبقى مشتعلة طوال الليل، فلا بد لها من أن تخمد بعض الوقت، ولا يمكن للقائمين عليها أن يبقوا أيقاظاً الليل كله، ولا بد لهم من أن يناموا طلباً للراحة، والتماساً لحاجة الجسد، وهنا لابد من وسيلة أخرى لهداية الضيف، ودلالته إلى منازل الأجواد ومواطن الكرماء، فكان نباح الكلب اليقظ للحراسة، موضوعاً تناوله الشعراء، وافتخروا بأن كلاب الأجواد لا تنام، وأنها لا تنقطع عن النباح، فيكون نباحها وسيلة يهتدي بها الضيف إلى غايته، ويعلم منه أن ثمة من ينزل في هذا المكان أو ذاك. أكثر الشعراء الجاهليون من الحديث عن الضيف الذي يستنبح الكلاب كي تجيبه، فيعرف الضيف أين يسكن الحي فيتجه إليه، فالمستنبح كما يقول القالي: "ذلك أن الرجل إذا تحير في الليل، فلم يدر أين البيوت، نبح فتسمعه الكلاب فتنبح، فيقصد أصواتها، وهذا الذي تقول له العرب المستنبح"(102)، والكريم المضياف إذا سمع هذا قام من فراشه، وأشعل نيرانه، وأشلى كلابه، وذلك كله في الظلمة الطخياء، والليلة الباردة، والريح العاصفة، فالمستنبح في صراع مرير مع قسوة الحياة وشدتها، يعاني أهوالها إلا أنه حريص على الانتصار على كل أسباب الهلاك والفناء، ولذا فهو يدعو ويستنبح بعد أن كاد يجن من هول ما يلاقي، فلما بلغ صوته حاتماً، هب مسرعاً ملبياً، فأوقد ناره وأخرج كلبه، فلما رآه الضيف، أيقن بالنجاة والحياة من جديد،

فكبر الله، يقول حاتم(103):

ودا‌ع دعــــا بعد الهدو كأنما
يقاتل أهوال السرى وتـــقاتله
دعا آئساً شـــبه الجنون وما به
جنون، ولكن كيد أمر يـــحاوله
فلما سمعت الصوت ناديت نحوه
بصوت كريم الجد حلو شمائله
فأوقدت ناري كي ليبصر ضوءها
وأخرجت كلبي وهو في البيت داخله
فلمـــا رآني كـــبر الله وحـــده
وبشر قلباً كان جمـــاً بلابلـــه

ويستنبح ضيف آخر ليلاً، وهو يقاسي أهوال الطبيعة، فالريح باردة نكباء، تضربه في ليلة جمادية صرصر، يكاد معها ينخلع رأسه لكثرة تلفته وشدة حيرته، واستراقه السمع لأي صوت من أي مصدر كان، فهو يلتمس سبل النجاة، ويبحث عمن ينقذه من هول ما يلاقي، فهو في صراع مرير مع ظروف قاهرة، ولا يريد أن يستسلم لعوامل الهلاك، بل يصر على النجاة، والانتصار للحياة، ولهذا فهو يستنبح ويتلفت ويصغي لصوت نجدة يغـيثه، يقول الشاعر(104):

ومستنبح تهوي مســاقط رأســه
إلى كل شخص فهو للسمع أصور
يصفقـــه أنف من الريح بارد
ونكباء ليل من جمادى وصرصر
حبيب إلى كلب الكريم منـــاخه
بغيض إلى الكوماء والكلب أبصر

ويبقى الشاعر حريصاً على تصوير شدة المعاناة التي يكابدها المستنبح، فهو يرسم صورة مفزعة مخيفة لوقت الاستنباح، فهذا مستنبح يرسل صوته ليلاً لتحمله الريح الباردة لعله يستثير الكلاب فتجيبه، فيهتدي الى طريقه ويجد من يخلصه من هلاك محقق، وفناء أكيد، يقول عمرو بن الأهتم(105):

ومستنبح بعـد الهـدوء دعوته
وقد حان من نجم الشـتاء خفوق
يعالج عرنينـاً من الليـل بارداً
تلف رياح ثوبه وبـــــروق
تألق في عين من المـزن وادق
له هيدب داني السحاب دفـوق
أضفت فلم أفحش عليه ولم أقـل
لأحرمه إن المكان مضيـــق

ومن أحسن ما ورد في "المستنبحات"(106)، قول المتلمس الضبعي، مصوراً المستنبح وقد طرقه في ليلة ظلماء، شديد بردها، عاصف ريحها، فظروف الطبيعة تكاد تهلك الرجل، إلا أنه حريص على الحياة متمسك بها، لا يبدي استسلاماً ولا يظهر يأساً، يجاهد الأهوال منتصراً للحياة، يصرخ في سواد الليل بأعلى صوته طلباً للغوث ومد يد العون، ويسعفه الشاعر منقذاً له، فهو بصنيعه هذا يعضد أخاه الإنسان في مواجهة الهلاك منتصراً للحياة، يقول(107):

ومستنبح تستكشف الريح ثـوبه
ليسقط عنه، وهو بالثوب معصم
عوى في سواد الليل بعد اعتسافه
لينبـح كلـب، أو ليـوقظ نوم
فجاوبه مستمـــع الصوت للندى
له عند إتيان المهبيـن مطعـم
يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلاً
يكلمه من حبـه وهو أعجـم

وتكاد الصورة نفسها تتكرر عند عوف بن الأحوص، فظروف الفناء تحدق بالضيف، فقد أطبق عليه الليل بظلامه، وأضلته الصحراء بفجاجها، فلم يسمع صوتاً أو ير شيئاً، فأخذ يستنبح بحثاً عن المبيت والدفء والزاد، فلما سمع عوف صوته هب لإنجاده وإغاثته، يقول(108):

ومستنبح يبغي المبيت ودونه
من الليل بابا ظلمة وستورها
رفعت له ناري فلما اهتدى بها
زجرت كلابي أن يهر عقورها
فبات وقد أسرى من الليل عقبة
بليلة صدق غاب عنها شرورها

وقد يخشى المضيف على المستنبح من صدى صوته، فيكون بهذا عرضة للفناء والهلاك، في ظلمة الليل، وقفر الصحراء، لذا سرعان ما يهب من نومه ليرفع ناره، ويشعلها عالية لتجنب المستنبح ترديدات الصدى في جنبات الصحراء، ومتاهات الظلام، يقول الشاعر(109):

ومستنبح بـات الصدى يستتيهـه
فتاه وجوز الليل مضطرب الكسر
رفعت له ناراً ثقوباً زنـــادهـا
تليح إلى الساري، هلم إلى قدري
فلما أتى والبؤس رادف رحله
تلقيته مني بوجه امرئ بشـــر

وعلى نحو من هذا ما صنعه عتبة بن بجير الحارثي، عندما خشي على ضيفه أن يجنح ويضله صدى صوته، فيهلك في هذه الأحوال الصعبة، والظروف القاهرة، فنهض

مسرعاً رافضاً الفناء منتصراً للحياة، ولذا فهو لم يتلبث طويلاً في مكانه، يقول(110):

ومستنبح بات الصدى يستتيهه
إلى كل صوت فهو في الرحل جانح
فقلت لأهلي ما بغام مطية
وسار أضافته الكلاب النوابح
فقالوا غريب طارق طرحت به
متون الفيافي والخطوب الطوارح
فقمت ولم أجثم مكاني ولم تقم
مع النفس علات البخيل الفواضح

ويقول الآخر(111):

ومستنبح قال الصدى مثل صوته
حضأت له ناراً لها حطب جزل

وبلغ الأمر بحاتم الطائي أن ينكر على ابنه أن يبطش بكلبته، لأنه يرى أن لها فضلاً لأنها تهدي الضيوف بنباحها إلى منزله، يقول(112):

أقول لابني وقد سطت يده
بكلبةٍ لا يزال يجلدها
أوصيك خيراً بها، فإن لها
عندي يداً لا أزال أحمدها
تدل ضيفي علي في غلس اللـ
ـيل؛ إذا النار نام موقدها

وقد يصف الشاعر النار الموقدة للمستنبح، فهي شقراء مثل الفجر، كما يقول الشاعر(113):

ومستنبح بعد الهدوء دعوته
بشقراء مثل الفجر ذاك وقودها

أو هي مشبوبة في رأس يفاع مرتفع، أو صمد عال، يقول حماس بن ثامل(114):

ومستنبح في لج ليل دعوته
بمشبوبة في رأس صمد مقابل

استقبال الضيف

عد المستضيف حسن استقبال مضيفه له، أو البشاشة في وجهه، والطلاقة عند قدومه، والترحيب به، والملاطفة له، والتأنيس والانبساط والتلقي بالبشر من حقوق القرى وتمام الإكرام(115)، وقد "كان للتحية أثر هام لدى لقاء الضيف"(116)، يقول ضمرة بن ضمرة النهشلي(117):

وقلت له: أهلاً وسهلاً ومرحبا
وأكرمته حتى غدا وهو حامد

ويقول الأعشى(118):

فقال له: أهلاً وسهلاً ومرحبا
أرى رحماً قد وافقتها صلاتها

ويقول الأعشى بن نباش(119):

يقول له: أهلاً وسهلاً ومرحبا
ولم يلف يا عثمان وجهك مظلما

وعبارات الترحيب هذه نجدها عند المثقب العبدي(120)، وعبد قيس بن خفاف البرجمي(121)، وحاتم الطائي(122).

ويشهد عروة بن الورد زوجه أم مالك على حسن استقباله لضيفه، يقول(123):

سلي الطارق المعتر يا أم مالك
إذا ما أتاني بين قدري ومجزري
أيسفر وجهي إنه أول القرى
وأبذل معروفي له دون منكري

وحاتم يتلقى ضيفه قبل أن ينزل عن راحلته، ضاحكاً في وجهه، هاشاً لملاقاته، على الرغم من ضيق الحال، عاداً حسن الاستقبال من تمام القرى، يقول(124):

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله
ويخصب عندي والمحل جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى
ولكنما وجه الكريم خصيب

ويجعل عروة من بيته بيتاً لضيفه، ومن فراشه فراشاً له، وطيب كلامه وحسن حديثه مادة السهر والمؤانسة، يقول(125):

فراشي، فراش الضيف، والبيت بيته
ولم يلهني عنه غزال مقنع
أحدثه إن الحديث من القرى
وتعلم نفسي أنه سوف يهجع

ويعتبر المضيف نزول الضيف به، مكسباً له، فيرحب به دون أن يعرفه، ويلقاه بالبهجة والبشر(126):

دعته بغير اسم هلم إلى القرى
فأسرى يبوع الأرض والنار تزهر
فلما أضاءت شخصه، قلت: مرحبا
هلم، وللصالين بالنار أبشروا

أما عتبة بن بجير فهو "كالمازح المفاكه لما أظهره من التلطف والبشاشة، وإظهار السرور بما يأتي من توفير الضيافة والاحتفال فيه، وايناس الضيف والبسط له محتفياً بالضيافة"(127)؛ ويجعل من نفسه أباً لضيفه لإعزازه له وإكرامه إياه، يقول(128):

فقام أبو ضيف كريم كأنه
وقد جد من فرط الفكاهة مازح

ويبدأ المتنخل الهذلي ضيفه بالمزاح واللعب

والمضاحكة، قبل أن يثني بالبساط والطعام، يقول(129):

سأبدؤهم بمشمعـة وأثني
بجهدي من طعام أو بساط

ويؤنس غربال الحنفي، ضيفه بالبشر والتلاطف، قبل أن يقدم له القرى، ويرى في قصد الضيف إياه دون غيره، فضلاً له عليه، يقول(130):

ألا رب ضيف طارق قد قريته
وآنسته قبل الضيافة بالبشـر
وجدت له فضلاً علي بقصده
إلي، يراني موضع الحمد والأجر

فتمام الضيافة عندهم الطلاقة عند أول وهلة، وإطالة الحديث عند المؤاكلة، وطلاقة الوجه ومضاحكة الضيف(131)، لأن ذلك من علامات الكرم والسرور بالضيف، والقصد إلى ايناسه وبسطه كما يقول الشريف المرتضى(132)، وما ذلك إلا لأن المضيف استطاع أن ينقذ ضيفه من هول المعاناة، ويخرجه من فناء محقق، ولهذا كانت الفرحة بالنجاة عظيمة لهما معاً، فقد انتصرا سوياً على عناصر الهلاك وعوامل الفناء، في هذه البيئة القاحلة المهلكة.

التغني بإكرام الضيف

كثيراً ما تغنى الشعراء بممدوحيهم الذين يكرمون الضيف، وينحرون له الجزر، ويقدمون له القرى، فالمضاف جواد كريم، يتجلى جوده في السنة القحط، عند كلب الزمان وشدة الحاجة، فهذا حاجز بن عوف الأزدي، يفخر بأن قومه عصمة الأضياف، في السنة الشهباء المهلكة التي تغدو فيها المئة من الإبل - لهزالها وضعفها من المحل - لا تروي الطفل الرضيع، فالقوم في مخمصة ومسغبة، ومع هذا كله فهم كرماء أجواد، وكان "الإكرام في العام المسنت"(133)، في مواجهة الدهر الذي ضربهم حتى أضر بهم، وهم في كرمهم يقهرونه ويخففون من وطأته عليهم، فينتصرون على عوامل الهلاك، يقول حاجز(134):

سلي عني إذا اغبرت جمادى
وكان طعام ضيفهم الثمـاما
ألسنا عصمة الأضياف حتى
يضحى ما لهم نفلا تؤامـا
فلو صاحبتنا لرضيت عنـا
إذا لم تغبق المئة الغـلامـا

والكرماء ينشطون للقرى "وقت الضيق والبرد والشدة والقحط"(135) حين تعوي الريح، وينعقد الصقيع، وقد ضرب بهؤلاء المثل، فقيل "أقرى من مطاعيم الريح"(136)، فجناب الطائي يتغنى بإكرامه ضيفانه في سنة غبراء، رياحها عجفاء، وصقيعها جاف، ويرسم لنا صورة مفزعة مخيفة لمعاناة الضيف، لتكون المفارقة في انتصار المضيف للحياة دون تريث أو تمكث، يقول(137):

إذا سنة غبراء يبـدو محولهـا
تقص الذرى عريانة الظهر شارف
وضـن غني النـاس حتى كأنمـا
يبل لفيـه يابـس الشـن ناطـف
هنالك يبدو طيب خبري ومشهـدي
إذا هـب أرواح الشتاء الحـراجف

ويقول حاتم الطائي(138):

إذا النجم أمسى مغرب الشمس ماثلاً
ولم يك في الآفـاق برق ينيـرها
إذا ما السماء لم تكن غـيـر جلبة
كـجدة بيت العنكبـوت ينيرهـا
فقد علمت غوث بأنا سراتـهـا
إذا أعلنت، بعد السـرار أمـورها
إذا الريح جاءت من أمام أظائـف
وألوت بأطناب البيوت صـدورها
وإنا نهين المال في غـيـر ظنـة
وما يشتكينا في السنين ضـريرهـا

ويسعى ضمرة النهشلي في سلوكه الإيجابي إلى تحقيق أهداف واسعة، فهو يعزز مكانته عند قومه، ويعلي من شأن قبيلته بين الناس، ويعمق انتمائه القبلي، ويستجيب لصوت داخلي يفرضه سلطان غريزة حب البقاء، وغريزة حاجة الإنسان إلى الجماعة، في مثل هذه الظروف التي يختل فيها الأمن"(139)، يقول ضمرة(140):

وطارق ليل كنت حـم مبيته
إذا قل في الحي الجميع الروافد
وقلت له: أهلاً وسهلاً ومرحبا
وأكرمته حتى غدا وهو حامد
وما أنا بالساعي ليحرز نفسه
ولكنني عن عورة الحي ذائد

ويحرص الشعراء على التغني بمآثر هؤلاء الذين سرعان ما يهبون لإنقاذ إخوانهم من الضيفان والعفاة، الذين يطرقونهم في ظروف قاهرة، فسرعان ما ينتصرون للحياة، ويقهرون الدهر، ويردون غيره وصروفه، بالوقوف إلى جانب المستضيف والمبالغة في قراه، وكأنما هم بصنيعهم هذا يبالغون في الانتصار للحياة ورفض الهلاك، ينتصرون للخير، وينحازون إليه؛ فهذا عمرو بن سنان الأهتم يذكر لنا

سرعة قيامه إلى ناقة كوما ينحرها لضيفه، يقول(141):

وقمت إلى البرك الهواجد فاتقت
مقاحيد كوم كالمجادل روق
بأدماء مرباع النتاج كأنها
إذا عرضت دون العشار فنيق
بضربة ساق أو بنجلاء ثرة
لها من أمام المنكبين فتيق
وقام إليها الجازران فأوفدا
يطيران عنها الجلد وهي تفوق
فبات لنا منها وللضيف موهنا
شواء سمين زاهق وغبوق

ويصنع المثقب العبدي الصنع نفسه، في الظروف القاسية ذاتها، يقول(142):

وقمت إلى البرك الهواجد فاتقت
بكوماء لم يذهب بها الني مذهبا
فرحبت أعلى الجنب منها بطعنة
دعت مستكن الجوف حتى تصببا
تسامى بنات الغلي في حجراتها
تسامي عتاق الخيل ورداً وأشهبا

وحاتم الطائي يفوق صنيعه صنيع سابقيه(143)، وكذلك يفعل الشاعر الحماسي(144)، وتغنى مضرس بن ربعي بتقديمه أشهى القرى لضيفه، في ليلة كسا الأرض الجليد، وعوت فيها الريح، وقد حرص الشاعر على تصوير القسوة والمعاناة التي أحدقت بالضيف، تماماً كحرصه على تصوير إنقاذه له، وان هذا الإنقاذ حق طبيعي له، لأنه إنسان سواء أكان قريباً أم بعيداً، يقول(145):

وإني لأدعو الضيف بالضوء بعدما
كسا الأرض نضاح الجليد وجامده
لأكرمه إن الكرامة حقه
ومثلان عندي قربه وتباعده
أبيت أعيشه السديف وإنني
بما نال حتى يترك الحي حامده

ويحنو جابر بن حيان على الضيف حنو الأب على عياله(146):

وما وجد الأضياف فيما ينوبهم
لهم عند علات النفوس أباً مثلي
أهين لهم مالي وأعلم أنني
سأورثه الأحياء سيرة من قبلي

وبلغ من تغنيهم بإكرام الضيف، والحرص على قراه أن جعلوا من أنفسهم عبيداً له، يقومون على خدمته، ويتشرفون بإكرامه(147). وكذلك كثيراً ما تغنوا بتعجيل القرى وسرعة الإطعام(148). ومن علامات كرمهم ومظاهر جودهم التي تغنوا بها أن كلابهم اعتادت الضيوف فلا تهر عند رؤيتهم، فالمضيف "جبان الكلب"(149)، "وما ينبح الكلب أضيافه"(150)، "ولا يهر الكلب ضيفي"(151).

وفي شعر الرثاء، كان الشعراء يحرصون على تصوير المرثي حريصاً على إنقاذ الضيف من الهلاك، منتصراً للحياة(152)، ويرون أن له حقوقاً عليهم(153).

وتظل الضيافة في السنة الجدباء، وأيام القحط، والإعطاء على العسر، والانتصار للحياة، ورفض الهلاك والفناء، سبباً لتغني الشعراء بصنع الأجواد، يقول أبو هلال العسكري: "وما مدحت العرب ولا تمدحت بمثيل الإعطاء على العسر والمواساة على القلة"(154).

مدح من يكرم الضيف

أشاد الشعراء الجاهليون بكرم ممدوحيهم من الأجواد، الذين طالما قاموا بواجب الضيف وسخوا بأموالهم، وأنفقوا بعضاً من ثروتهم إنقاذاً للإنسان، وحفاظاً على حقوق الضيافة، فالأعشى يمدح قيس بن معد يكرب الذي استضافه، بقوله(155):

وأبيض كالسيف يعطي الجزيل
يجود ويغزو إذا ما عدم
تضيفت يوماً على ناره
من الجود في ماله أحتكم

ويمدح هوذة بن علي، بقوله(156):

تضيفته يوماً فقرب مقعدي
وأصفدني على الزمانة قائدا

ومدح زهير بن جناب همام بن مرة واصفاً إياه بإقراء الضيف وأن جفانه مترعة، يقول(157):

حي امرءاً لا يذم الحي جفنته
ولا يبيت له ضيف على ساق

وطريف بن مالك الطائي، نعم الفتى لأن الضيفان يقصدون ناره، يقول امرؤ القيس فيه(158):

لنعم الفتى تعشوا إلى ضوء ناره
طريف بن مال ليلة الجوع والخصر

ويمدح زهير هرماً لكثرة ضيوفه، الذين يرهقون نيرانه وقت اللأواء(159)، ويشير إلى كثرة جفانه(160).

ويدفع الذم عن آل المحلق ما يقدمونه لضيوفهم من إطعام، ولما لهم من جفان مترعة، وقدور ممتلئة بالسديف، يقول الأعشى(161):

نفى الذم عن آل المحلق جفنة
كجابية السيح العراقي تفهـق
يروح فتى صدق ويغدو عليهم
بملء جفان من سديف يدفق
وعاد فتى صدق عليهم بجفنة
وسوداء لأياً بالمزادة تمرق

والمضيف يعلم أن للضيف حقاً عنده، فليس إقراؤه منّاً ولا صدقة، بل هو واجب وحق فرضته الطبيعة والأخوة الإنسانية، يقول لبيد في أخيه أربد(162):

فتى عارف للحق لا ينكر القرى
ترى رفده للضيف ملآن مترعا

ولأن للضيف حقاً، سرعان ما يقوم المضيف إلى النوق لينحر واحدة منها، إنقاذا لضيفه من الهلاك، ولنفسه من السبة، يقول حسان(163):

وإذا تأمل شخص ضيف مقبل
متسربل سربال ثوب أغبر
أوما إلى الكوماء هذا طـارق
نحرتني الأعداء إذ لم تنحري

ولهذا كان الذي يكرم ضيفه كالربيع، في خيره ودفئه، يقول المسيب(164):

هم الربيع على من ضاف أرحلهم
وفي العـدو مناكيـد مشـائيم

وإذا كان الشعراء يضفون على ممدوحيهم، حرصهم على إكرام الضيوف، وإنقاذهم من الأهوال والمصاعب، فهم أشد حرصاً على تصوير أقوامهم وأنفسهم، وهم ينهضون بهذا العبء، ويقومون بهذا الواجب تجاه الإنسان، يقول لبيد(165):

فلا وأبيك ما حي كحـي
لجارٍ حل فيهم أو عديـم
ولا للضيف إن طرقت بليل
بأفنان العضـاه وبالهشيم
وروحت اللقاح بغيـر در
إلى الحجرات تعجل بالرسيم
وخود فحلها من غير شـل
بدار الريح، تخويد الظلـيم

ولكنا نعض السيف منها
بأسوق عافيات اللحم كوم

فقوم لبيد يستخلصون حياة الضيف من الموت المحقق، في هذه الليلة الباردة، من السنة الشهباء، فالمضيف "حين يقدم القرى فإنما يقتل أسباب الموت والهلاك في الصحراء"(166) وكذلك يفعل قوم عبيد بن العزى السلامي(167)، وقوم زهير بن مسعود الضبي(168)، وقوم الأعشى(169)، وقوم ممدوح امرئ القيس(170)، وقد أكثر الشعراء من الحديث عن دور أقوامهم(171).

وقد "نظر بعض الشعراء إلى أن الجود سجية عائلية، تورث من الآباء إلى الأبناء، بحيث أصبحت هذه السجية من تقاليد العائلة"(172)، ولهذا كان الآباء يحرصون على وصاية أبنائهم بإكرام ضيوفهم، يقول عبد القيس بن خفاف البرجمي(173):

والضيف أكرمه فإن مبيتـه
حق، ولا تك لعنـة للنـزل
واعلم بأن الضيف مخبر أهلِهِ
بمبيت ليلتـه وإن لم يسـأل

ويقول الأعشى(174):

الضيف أوصيكم بالضيف إن له
حقـاً علي فأعطيه وأعتـرف

ويقول لبيد(175):

وأعطوا حقوقاً ضمنوها وراثة
عظام الجفان والصيام الحوافلا

وفي شعر الرثاء، نجد أن الشعراء يركزون على أن المرثي كان يعطي الضيف حقه، ويعطي الضيافة معناها الواسع، وأنه كان يسارع لنجدة الضيف وغوثه، في السنة القحط، والزمهرير الشديد، والبرد القارس، كقول لبيد في أخيه أربد(176):

أبكي أبا الحزاز يوم مقامة
لمناخ أضياف ومأوى مقتر
والحي إذ بكر الشتاء عليهم
وعدت شآميـة بيوم مقمـر
وتقنع الأبرام في حجراتهم
وتجزأ الأيسار كل مشهـر
ألفيت أربد يستضاء بوجهه
كالبدر، غير مقتر مستـأثر

وتكثر في هذا اللون من الشعر، ألفاظ القرى والجفان والقدور، وإشعال النيران واستنباح الكلاب، وان المرثي كان غوث الضيف وغيثه في السنة الشهباء، فهو "حيا الأضياف في كل شتوة"(177) و"عصمة في الزمن الكلاح"(178)، وكذلك هو "حين تهب شمأل الريح"(179)، فجعل الشعراء موت المرثي مصيبة عظيمة؛ لأن الضيافة كانت أكبر مناقبه(180).

هجو من يبخل على الضيف

عرض الشعراء بأولئك الذين يبخلون على الضيف ولا يقومون بحقه، ووصفوهم بالبخل والكزازة، وأنهم يسترون نيرانهم، ويكعمون كلابهم، وهم بصنيعهم هذا يتنكرون للخير، ولا ينتصرون للحياة، فهم أنانيون غير مكترثين بسواهم، ولهذا استحقوا الذم والهجو، يقول بشر بن أبي خازم في أوس بن حارثة وقومه بني لأم(181):

ألا أبلـغ بني لأم رسـولاً
فبئس محل راحـلة الغريب
لضيف قد ألم بهـا عشـاء
على الخسف المبين والجدوب

ويهجوهم ثانية بقوله(182):

إذا ما جئتهم تبغي قـراهم
وجدت الخير عندهم عسيرا

والذي يبخل على ضيفه حليف اللؤم والبؤس، كما يقول قرواش بن هاني واصفاً برد بن حابس(183):

رأيت حليف اللـؤم برد بن حابس
على الضيف يشلي الكلاب كل صباح
ويخنقه في الليل إن هـر خيفـة
من الضيف أن يهدي له بنـباح

إنها صورة قميئة، يبدو فيها المهجو في منتهى الخسة والكزازة.

وهجا خداش بن زهير عبد الله بن جدعان فأبكاه، كما قال الجاحظ: " بكى عبد الله بن جدعان من بيت لخداش بن زهير "عرض به" ووسمه بالضرع وهو غاية الذل والانكسار"(184)، فسلبه صفات الحمد من إهانة المال وإقراء الضيف، وألصق به المثالب كالضراعة والسمنة والخمول، يقول(185):

وأنبئت ذا الضرع ابن جدعان سبني
وإنـي بذي الضرع ابن جدعان عالم
أغرك أن كانت ببطنك عـــــكنة
وأنك مكفـــي بمكـــة طـاعـم
أبى لكم أن النفوس أذلــــة
وأن القرى عن واجب الضيف عاتم

وضيف بني نجيح، خميص يطوي أمعاءه لشدة الجوع، لأنه نزل بقوم بخلاء، يقول الأسود بن يعفر فيهم(186):

يبيت الضيف عند بني نجيح
خميص البطن ليس له طعام
يهون عليهم أن يحـرموه
إذا جلبوا لقاحهـم وناموا

ويهجو حسان بن ثابت بني سليم بن منصور، واصفاً إياهم بالبخل والكزازة، وأن كلابهم تنح الضيفان، يقول(187):

لها عقل نسون وشر شـريعة
نزور نداها حين يبغى بحورها
إذا ضفتهم ألفيت حول بيوتهم
كلاباً لها في الدار عال هديرها

والمهجو يكعم كلبه، ويستر ناره، فهي في خفر كالعذراء، يقول الشاعر(188):

وتكعم كلب الحي من خشية القرى
ونارك كالعذراء من دونهـا ستر

ولصنيعه هذا يستحق الشتم كما يقول عامر بن مالك(189):

لحا الله أنانا عن الضيف بالقرى
وألأمنا عن عرض والده ذبـا

ويهجو شاعر شخصين يسميهما (بدر وضمضم)، لأنهما لا يكرمان الضيوف، ولا يقومان بحقوقهم، ويتساءل الشاعر ساخراً منهما، كيف يكون ذلك - الإكرام - في خلقهما وهما مشوهان في خلقتيهما؟، يقول(190):

لبئس مناخ الضيف يلتمس القرى
إذا نزلوا بالقرن، بـدر وضمضم
وهل يكرم الأضياف إن نزلوا به
إذا نزلوا، أشغى، لئيم، وأجـذم

والذي لا يقري الضيف، ولا يقوم بحقه، مليخ كلحم الحوار، لا طعم له، يقول الأشعر الرقبان يهجو من بخل على ضيفه(191):

وأنت مليخ كلحـم الحـوار
فلا أنت حلو ولا أنت مـر
وقد علم الضيف والطارقون
بأنك للضيف جـوع وقـر

فالشاعر الذي يهجو البخيل يدعو إلى السماحة والبذل، لأنه يرمي إلى "إيقاظ النفوس، وخاصة تلك التي ران عليها حب المال"(192).

والخـلاصة أن الباحث لاحظ حرص الشعراء وإصرارهم على رسم صورة مرعبة مخيفة، للأوقات والظروف التي يطرق فيها المستضيف المضيف، فهي تأتي في: كلب الزمان، وشدة البرد، وتنكر الدهر، عندما تهب الشآمية، وتعوي الرياح القارصة، وينتشر الجليد على الأرض كالملح، وتشتد الظلمة، وتفقد الصوى، وتضيع الدلائل، فيغدو المستضيف إلى الهلاك أقرب منه إلى النجاة، كما لاحظ أن الشعر الذي قيل في الضيافة، وحفل بمفرداتها، مدح الأجواد والكرماء، الذين يقومون بحق الضيف وينزلونه منزلاً كريماً، وينتصرون للحياة، وينحازون للخير، وهجا أولئك الذين

يبخلون عليه، فيسترون نيرانهم، ويكعمون كلابهم، ورسم لهم صورة سلبية، تقابل تلك الصورة الإيجابية التي قدم بها الأجواد، وبهذا يكون الشعر صادقاً؛ فليس العرب جميعاً كرماء أجواداً، ولا هم جميعاً بخلاء أشحاء، كما ان الضيافة لم تكن سلوكاً فردياً، بقدر ما كانت ضرورة اجتماعية تمليها ظروف الحياة الطبيعية والإنسانية معاً، وان القرى بهذا يصبح عنصراً فاعلاً وأساسياً في قهر الدهر ومواجهة الفناء.

الهوامش

(1) انظر: ضيف، العصر الجاهلي، ط7، ص68، الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ط5، ص310.

(2) علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط1، مج4، ص576.

(3) انظر: حتي، تاريخ العرب (مطول): ط4، مج1، ص32.

(4) انظر مثلاً: عبد الله، شعر الكرم الجاهلي، رؤية جديدة. الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي. نعناع، الجود والبخل.

(5) انظر: ابن منظور، لسان العرب: المواد (أدب، ولم، وضم، نقع، عقق، نقر، قرى، جفل، وكر، قرس، عذر).

(6) ابن منظور، لسان العرب. وانظر: الجوهري، تاريخ اللغة وصحاح العربية.

(7) لسان العرب: (جفن).

(8) لسان العرب: (قصع) وقال الكسائي: أعظم القصاع الجفنة ثم القصعة تشبع العشرة، ثم الصحيفة (بالتصغير) تشبع الرجل. انظر: ديوان امرئ القيس، ص49.

(9) لسان العرب: (شيز).

(10) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، ص365.

(11) الحداد: البواب.

(12) ديوان أمية بن أبي الصلت، ص349.
ردح: واسعة. يلبك: يخلط. الشهاد: العسل.

(13) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، ص290.

(14) المفضل الضبي، المفضليات، ط6، ص323.
السفاح بن بكير بن معدان اليربوعي، المفضليات، ص321.

(15) السكري، شرح أشعار الهذليين، مج1، ص79.
المذانب: المغارف.

(16) لسان العرب: (صيد). والبيت ليس في ديوانه.

(17) الأعلم الشنتمري، ديوان طرفة بن العبد، ط2، ص72.
السديف: السنام المقطع.

(18) ديوان الأعشى الكبير؛ ص 275.
اللأي: الشدة والمشقة.

(19) المصدر السابق، ص274.

(20) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ط1، ص1645.

(21) الجاحظ، البيان والتبيين، ط2، مج1، ص223.

(22) ابن السكيت، ديوان الحطيئة، ط1، ص198.

(23) ديوان عمرو بن قميئة، ط2، ص14.

(24) القديح: ما يبقى أسفل القدر، دهداة القلاص: صغارها، النضيح: الحوض، لأنه ينضح العطش.

(25) ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج 3، ص265.
أحمشت النار: ألهبتها.

(26) المصدر السابق، مج3، ص268.

(27) ديوان الحماسة، 1643.

(28) ديوان أمية بن أبي الصلت، ص381.

(29) المناضح: الحياض، الأصفار: الآنية الخالية، الرح: جمع رحاء وهي الجفنة الواسعة إذا كانت عريضة ليست بقعيرة، السلاطح: الطوال العراض.

(30) ديوان النابغة الذبياني، ص175.

(31) ديوان الأفوه الأودي: ضمن الطرائف الأدبية، جمع وتحقيق عبد العزيز الميمني، ص19.

(32) شرح أشعار الهذليين، مج1، ص79.
ترازمت: صوتت.

(33) ديوان أمية بن أبي الصلت.

(34) ديوان طرفة بن العبد، ص 176.
الأضى: جمع أضاة: وهي المستنقع من سيل أو غيره. المعارك: المزاحم.

(35) ديوان عنترة بن شداد، تحقيق محمد سعيد مولوي، ص315.

(36) ديوان لبيد بن ربيعة، ص136.

(37) ديوان الحماسة، ص512.

(38) الدهدقة: الصوت من تقليب القطع في القدر، المناقع: القدور الصغار.

(39) ديوان حاتم الطائي، ص198.

(40) الشآمية: القدر، الدخامس: الردئ، الدهدقة: قطع اللحم وكسر العظم، تغطمطت: قصد غليان القدر وفورانه.

(41) البطل في التراث: نوري حمودي القيسي، ط1، ص54.

(42) ديوان أمية بن أبي الصلت، ص381.

(43) المشمعل: النشيط السريع، الردح: الواسعة، يلبك: يخلط.

(44) المفضليات، ص294.

(45) ديوان لبيد بن ربيعة، ص177.

(46) المصدر السابق، ص70.

(47) ديوان النابغة، ص175.

(48) ديوان لبيد بن ربيعة، ص249.

(49) يعقوب، أشعار العامريين الجاهليين، ط1، ص60، وتنسب

للأعشى؛ انظر ديوانه، ص421.

عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، شاعر جاهلي يدعى الجرار، والأحوص لقب أبيه، وهو سيد قومه، واسم أبيه ربيعة، معجم الشعراء، ص123.

(50) ديوان حاتم الطائي، ص246.
(51) المصدر السابق، مج2، ص17.
(52) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، مج1، ص126.
(53) الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات، ص412.
(54) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص91.

اللأواء: الشدة والمشقة.

(55) شرح أشعار الهذليين، مج1، ص123.
(56) يموت، شاعرات العرب في الجاهلية، بشير ط1، ص123.

هي هند بنت أثالة بن عباد بن المطلب.

الجذل: عود ينصب للإبل الجربى. الزفزف: السريع.

(57) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص290.
(58) ديوان الخنساء، مج 11، ص42.
(59) المصدر السابق، ص56.
(60) المصدر السابق، ص56.
(61) ديوان الحماسة، ص1031.

قبيصة بن النصراني الجرمي الطائي، شاعر جاهلي، يرجح أنه عاش في أواخر القرن السادس الميلادي. حماسة أبي تمام، ص247، 252، 254.

(62) المصدر السابق، ص1687.

زيد بن حصين بن ضرار، من بني ضبة، كان فارساً وشاعراً وهو زيد الفوارس، الاشتقاق، ص120.

(63) ديوان لبيد بن ربيعة، ص164.
(64) شاعرات العرب، ص68.
(65) ديوان شعر الخرنق بنت بدر بن هفان: تحقيق حسين نصار، ط2، مج29، ص34.
(66) الأغاني، مج3، ص94.
(67) ديوان الحماسة، 1624.
(68) ديوان السموأل بن عاديا، ص27.
(69) ديوان النابغة الذبياني، ص175.
(70) ديوان طرفة بن العبد، ص176.
(71) ديوان الأعشى، ص275.
(72) ديوان لبيد بن ربيعة، ص324.
(73) النوتي، الصحراء في الشعر الجاهلي، ص208.
(74) الجاحظ، الحيوان، ط3، مج6، ص30.
(75) الحيوان: الجاحظ، مج 5، ص133.
(76) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، مج1، ص113.
(77) شعر بني تميم في العصر الجاهلي: جمع وتحقيق عبد الحميد محمود المعيني، ص174.

عمرو بن سنان بن منقر من بني تميم، والأهتم لقب أبيه بعد أن ضربه قيس بن عاصم المنقري بقوس على فمه فهتمت أسنانه، وذلك في يوم الكلاب الثاني، وهو شاعر مخضرم، معجم الشعراء، ص21.

(78) المرزباني، معجم الشعراء، ط1، 110، وانظر أشعار العامريين، ص49.
(79) ديوان حاتم الطائي، ص300.
(80) ديوان شعر المثقب العبدي: تحقيق حسن كامل الصيرفي.
(81) ابن هشام، السيرة النبوية، مج3، ص131.

هبيرة بن أبي وهب المخزومي، شاعر من رجال قريش المعدودين، كان شديد العداوة للرسول صلى الله عليه وسلم فأخمله الله، له شعر كثير كما يقول بن سلام. طبقات ابن سلام 257.

القريس: قرس الماء يقرس قرساً، فهو قريس: جمد.

(82) حماسة البحتري: تحقيق لويس شيخو، مج 2، ص302.

مضرس بن ربعي بن لقيط الأسدي، من بني فقعس، وصفه الآمدي بأنه شاعر محسن متمكن. المؤتلف 191.

(83) الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين: مج 1، ص74.

اسمه عمرو بن سفيان بن حمار بن الحارث بن أوس الأزدي، سمي معقراً لقوله:

لها ناهض في الوكر قد مهدت له
كما مهدت للبعل حسناء عاقر

معجم الشعراء 9.

(84) ديوان عدي بن زيد العبادي: حققه وجمعه محمد جبار المعيبد، ص96.
(85) ديوان الحماسة، ص1645.
(86) ديوان امرئ القيس، ص142. الخصر: البرد يجده الإنسان في أطرافه. الإبساس: الصويت الذي تسكن به الناقة عند الحلب.
(87) ديوان الأعشى، ص274.
(88) معجم الشعراء، ص149.

مقـوٍ: مسافر.

(89) السيرة النبوية، مج3، ص42.
(90) ديوان الأعشى، ص 273.
(91) ديوان الحطيئة، ص 137.
(92) ديوان الحماسة، ص 1695.
(93) الشعر والشعراء، ص 233.
(94) ديوان عدي بن زيد، ص 100.
(95) المعري، أبو العلاء، شروح سقط الزند، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ص1112.
(96) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص318.
(97) المفضليات، ص240.

الكوذن: البرذون البطيء السير. الأصحم: الأسود فيه صفرة.

(98) انظر: السيرة النبوية، مج3، ص131، معجم الشعراء، ص149، ديوان الحماسة، ص1965.

(99) انظر: ديوان الحماسة، ص1645، 1715، الحماسة البصرية، ص246، معجم الشعراء، ص110، شعر تميم، ص174، أشعار العامريين، ص49.

(100) انظر: ديوان الحماسة، ص1643، 1644، 1695.

(101) شعر تميم، ص255.

(102) القالي، الأمالي، مج1، ص210.

(103) ديوان حاتم الطائي، ص303.

(104) ديوان الحماسة، ص1645.
أصور: أميل.

(105) المفضليات، ص126. العرنين: الأنف. الهيدب: شيء يتدلى من السحاب مثل الهدب.

(106) ديوان شعر المتلمس الضبعي: تحقيق حسن كامل الصيرفي، مجلة معهد المخطوطات العربية، ص316.

(107) المصدر السابق، ص317.

(108) معجم الشعراء، ص110، وانظر: ديوان الحماسة، ص1705، أشعار العامريين، ص49.

(109) الأمالي، مج1، ص210.

(110) ديوان الحماسة، ص1559.

(111) المصدر السابق، ص1569.

(112) ديوان حاتم الطائي، ص265.

(113) ديوان الحماسة، ص1643.

(114) المصدر السابق، ص1695. الصمد: المكان الغليظ المرتفع من الأرض لا يبلغ أن يكون جبلاً.

(115) انظر: عجلان، الهجاء الجاهلي، صوره وأساليبه الفنية، ص101.

(116) الجود والبخل، ص101.

(117) شعر تميم، ص278.
ضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطن بن نهشل من تميم، شاعر جاهلي دميم الخلقة، ذكي حكيم، كان فارساً شاعراً شريفاً سيداً. المؤتلف، ص45.

(118) ديوان الأعشى، ص135.

(119) شعر تميم، ص156.

(120) ديوان المثقب العبدي.

(121) شعر تميم، ص353.
الأعشى بن نباش بن زرارة، من بني أسيد بن تميم، كان حليفاً لبني عبد الدار، وكان أخوه زوجاً لخديجة، رضي الله عنها، قبل الإسلام. السيرة، ص136.

(122) ديوان حاتم الطائي، ص119.

(123) ديوان عروة بن الورد، ص90.

(124) ديوان حاتم الطائي، ص309.

(125) ديوان عروة بن الورد، ص101.

(126) ديوان الحماسة، ص1645.

(127) المصدر السابق، ص1559.

(128) المصدر السابق، ص1559.

(129) شرح أشعار الهذليين، مج3، ص1269.
اسمه مالك بن عويمر بن عثمان بن سويد بن خنيس بن خناعة بن عادية، من هذيل، ينتهي نسبه إلى مدركة بن إلياس بن مضر، شاعر جاهلي. ديوان الهذليين 2: 1.
المشمعة: الطرب والضحك والمزاح واللعب.

(130) الأشباه والنظائر، مج2، ص258.

(131) انظر: المستطرف، مج1، ص182، الأشباه والنظائر، مج1، ص65.

(132) أمالي المرتضى، مج2، ص13.

(133) البخلاء، ص230.

(134) الجبوري، قصائد جاهلية نادرة، ط1، ص83.
حاجز بن عوف بن الحارث بن الأخشم بن عبدالله بن ذهل، ينتهي نسبه إلى نصر الأزد، شاعر جاهلي مقل، وأحد الصعاليك المغيرين على قبائل العرب، كان يعدو على رجليه فيسبق الخيل. الأغاني، مج13، ص211.

(135) الجبوري، الشعر الجاهلي، ص63.

(136) مجمع الأمثال، مج2، ص127.

(137) المؤتلف والمختلف، ص131.
الحرجف: الريح الباردة.

(138) ديوان حاتم الطائي، ص245.
أظائف: علم لجبل.

(139) الزعبي، البطولة في الشعر الجاهلي، ص48.

(140) شعر تميم، ص278.

(141) المفضليات، ص126.
الهواجد: النيام. المقاحيد: الإبل العظام الأسنمة. المجادل: القصور. النجلاء: الطعنة الواسعة. الثرة: الواسعة مخرج الدم. أوفدا: ارتفعا. تفوق: تجود بنفسها.

(142) ديوان المثقب العبدي، ص117، وانظر: المفضليات، ص431، ديوان عامر بن الطفيل، ص46.

(143) انظر: ديوان حاتم الطائي، ص303.

(144) انظر: ديوان الحماسة، ص1645.

(145) حماسة البحتري، مج2، ص302.

(146) عيون الأخبار، مج1، ص343، وانظر: ديوان الحماسة، ص1710.

(147) انظر: ديوان الحماسة، ص700، ديوان لبيد، ص290، عيون الأخبار، مج1، ص343، شعر تميم، ص149.

(148) انظر: ديوان عامر بن الطفيل، ص78.

(149) ديوان حاتم الطائي، ص246.

(150) المصدر السابق، ص254.

(151) المصدر السابق، ص289.

(152) انظر: ديوان الأعشى، ص359، ديوان لبيد، ص166، 173، ديوان الخنساء، ص14، 26، 32، 35، 45، 91،

98، 140، أشعار الهذليين، مج2، ص585، معجم الشعراء، ص392، السيرة النبوية، مج3، ص41، 42، شاعرات العرب، ص44، 45، 60، 101.

(153) انظر: ديوان الأعشى، ص136، 153، 359، ديوان سلامة بن جندل، ص226، 359، ديوان أمية بن الصلت، ص25، ديوان السموأل، ص88، 91، ديوان لبيد، ص318، المفضليات، ص368، الممتع في علم الشعر، ص57، 154، شعر تميم، ص348.

(154) الكرماء: أبو هلال العسكري، ص10،

(155) ديوان الأعشى، ص85.

(156) المصدر السابق، ص115. الزمانة: الضعف والعاهة.

(157) قصائد جاهلية، ص38.

(158) ديوان امرئ القيس، ص320.

(159) ديوان زهير، ص91.

(160) المصدر السابق، ص365.

(161) ديوان الأعشى، ص275.

(162) ديوان لبيد بن ربيعة، ص173.

(163) ديوان حسان بن ثابت، ص387.

(164) شعر المسيب بن علس، ص147.

(165) ديوان لبيد بن ربيعة، ص103.

(166) شعر الكرم، ص63.

(167) قصائد جاهلية، ص131.

(168) المصدر السابق، ص94.

(169) ديوان الأعشى، ص152، 421.

(170) ديوان امرئ القيس، ص254.

(171) انظر: المفضليات، ص126، ديوان طرفة، ص74، ديوان المتلمس، ص317، ديوان الهذليين، مج2، ص21، ديوان الأعشى، ص421، ديوان الحماسة، ص296، 1559، 1645، شعر تميم، ص174، حماسة الظرفاء، مج2، ص201، معجم الشعراء، ص110، 392، المؤتلف والمختلف، ص131، الممتع في علم الشعر، ص154.

(172) الجود والبخل، ص40.

(173) شعر تميم، ص248.

(174) ديوان الأعشى، ص359.

(175) ديوان لبيد بن ربيعة، ص249.

(176) المصدر السابق، ص166.

(177) معجم الشعراء، ص443.

(178) ديوان لبيد بن ربيعة، ص333.

(179) المصدر السابق، ص333.

(180) انظر: ديوان الخنساء، ص11، 14، 45، 48، 51، 56، 65، 75، 91، 98، 140، ديوان لبيد، ص173، ديوان بشر بن أبي خازم، ص148، معجم الشعراء، ص392، السيرة النبوية، مج3، ص41، 42، شاعرات العرب، ص60، 68، 74، 84، 88، 100، 101، 118.

(181) ديوان بشر بن أبي خازم، ص70.

(182) المصدر السابق، ص122.

(183) الحماسة البصرية، مج2، ص252.
لم أعثر على ترجمة له، ولعله قرواش بن هنَي بن أسيد بن جذيمة الذي قتل حذيفة بن بدر يوم الهباءة، ولعنترة شعر في هجائه. الحماسة البصرية، ص1217.

(184) الحيوان، ص92.

(185) الشعر والشعراء، ص650.

(186) ديوان الأسود بن يعفر، ص57.

(187) ديوان حسان بن ثابت، ص105.

(188) الحيوان، مج1، ص385.

(189) أشعار العامريين، ص67.

(190) الأصفهاني، بلاد العرب، ط1، ص54.
الأشغى: المختلف نبتة الأسنان بالطول والقصر.

(191) عيون الأخبار، مج3، ص269.
هو عمرو بن حارثة بن سلامة بن سعد بن مالك بن أسد، وقيل هو من بني سواءة بن الحارث بن سعد بن مالك بن ثعلبة، قتل عمرو بن هند أخاه فسرق ابنين له فذبحهما، وهو شاعر خبيث، معجم الشعراء، ص19.
المليخ: الذي لا طعم له.

(192) البطولة في الشعر الجاهلي، ص49.

المصادر والمراجع

ابن بكار، الزبير، الأخبار الموفقيات، تحقيق سامي مكي العاني، 1973، مكتبة العاني، بغداد.

ابن منظور، لسان العرب.

أبو بكر محمد، وأبو عثمان سعيد، الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين، حققه وعلق عليه السيد محمد يوسف، 1958م، مكتبة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

الأسود بن يعفر، ديوانه، تحقيق نوري القيسي، 1962م، بغداد.

الأصبهاني، حمزة بن الحسن، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، تحقيق عبد المجيد قطامش، دار المعارف، مصر.

الأصفهاني، الحسن بن عبد الله، بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي، 1968م، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الطبعة الأولى.

الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، ديوانه، شرح وتعليق محمد محمد حسين، 1972م، دار النهضة العربية.

الأفوه الأودي، ديوانه، ضمن الطرائف الأدبية، جمع وتحقيق عبد العزيز الميمني، 1937م، القاهرة.

امرؤ القيس،
ديوانة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، 1958م، القاهرة.

ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار الكنوز الأدبية.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، 1977م القاهرة.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله، عيون الأخبار، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1925 – 1930م.

الإبشيهي، شهاب الدين، المستطرف في كل فن مستظرف، القاهرة، 1368 هـ.

أمية بن أبي الصلت، ديوانه، جمع وتحقيق ودراسة عبد الحفيظ السطلي، دمشق، الطبعة الثانية.

البحتري، حماسة، تحقيق لويس شيخو، 1910م، بيروت.

بشر بن أبي خازم، ديوانه، تحقيق عزت حسن، 1960م، دمشق.

البرقوقي، عبد الرحمن، 1980م، شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، دار الأندلس، بيروت.

البصري، صدر الدين، الحماسة البصرية، تحقيق مختار الدين أحمد، 1964م، حيدر أباد.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، 1961م، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الثانية.

الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، 1969م، المجمع العربي الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة.

الجبوري، يحيى، 1997م، الشعر الجاهلي، خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثامنة.

الجبوري، يحيى، 1982م، قصائد جاهلية نادرة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت.

جواد علي، 1970م، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى.

الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي، مصر.

حاتم بن عبد لله الطائي، ديوانه وأخباره، دراسة وتحقيق عادل سليمان جمال، مطبعة المدني.

حتي، فيليب وآخرون، 1965م، تاريخ العرب (مطول)، دار الكشاف للنشر والطبع والتوزيع، بيروت، الطبعة الرابعة.

الحطيئة، ديوانه، رواية وشرح ابن السكيت (ت 246 هـ)، تحقيق نعمان محمد أمين، 1987م، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الأولى.

الحوفي، أحمد، 1972م، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، دار نهضة مصر.

الخرنق بنت بدر بن هفان، ديوانها، تحقيق حسين نصار، 1996م، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية.

الخنساء، الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، 1978م.

الزعبي، منذر محمد، 1997م، البطولة في الشعر الجاهلي، رسالة دكتوراه، مضروبة على الآلة الكاتبة، جامعة اليرموك.

السكري، أبو سعيد، شرح أشعار الهذليين، صنعة تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مكتبة خياط، بيروت.

سلامة بن جندل، ديوانه، تحقيق فخر الدين قباوة، حلب، 1968م.

السموأل بن عاديا، ديوانه، تحقيق محمد حسن آل ياسين، 1955م، بغداد.

الشيباني، أبو العباس أحمد (ثعلب)، شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة الإمام الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1964م.

ضيف، شوقي، العصر الجاهلي، دار المعارف، الطبعة السابعة، مصر.

طرفة بن العبد، ديوانه، شرح الأعلم الشنتمري، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، 2000م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية.

عامر بن الطفيل، ديوانه، دار صادر، بيروت، 1979م.

عبد الله، إصلاح، 1993م، شعر الكرم الجاهلي، رؤية جديدة، دار المعرفة الجامعية، مصر.

عجلان، عباس بيومي، 1985م، الهجاء الجاهلي؛ صوره وأساليبه الفنية، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية.

عدي بن زيد العبادي، ديوانه، حققه وجمعه محمد جبار، 1965م، المعيبد، شركة الجمهورية للنشر والطبع والتوزيع، بغداد.

عروة بن الورد، ديوانه، تحقيق عبد المعين الملوحي، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي، سوريا.

عمرو بن قميئة، ديوانه، تحقيق حسن كامل الصيرفي، 1997م، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، الطبعة الثانية.

عنترة بن شداد، ديوانه، تحقيق محمد سعيد مولدي، 1970م، المكتب الإسلامي.

العسكري، أبو هلال، الكرماء، تحقيق محمود الجبلاوي، 1326 هـ، القاهرة.

القالي، أبو علي، الأمالي، دار الكتاب العربي، بيروت.

القيسي، نوري حمودي، 1988م، البطل في التراث، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى.

لبيد بن ربيعة، شرح الديوان، حققه وقدم له إحسان عباس، 1962م، الكويت.

المتلمس الضبعي، ديوانه، تحقيق حسن كامل الصيرفي، 1968م، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة.

المثقب العبدي، ديوانه، تحقيق حسن كامل الصيرفي، 1997م، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، الطبعة الثانية.

المرزوقي، أبو علي أحمد، شرح ديوان الحماسة، نشره أحمد أمين، وعبد السلام هارون، 1991م، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى.

المعري، أبو العلاء، شروح سقط الزند، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، 1964م، القاهرة.

المعيني، عبد الحميد، 1982م، شعر بني تميم في العصر الجاهلي، منشورات نادي القصيم الأدبي.

المرزباني، أبو عبد الله محمد، معجم الشعراء، صححه وعلق عليه، ف. كرنكو، 1991م، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى.

المرتضى، علي بن الحسين، أمالي المرتضى، تحقيق محمد النعساني، 1907م، القاهرة.

المسيب بن علس، شعره، جمعه وحققه ودرسه أنور أبو سويلم، 1994م، منشورات جامعة مؤتة، الطبعة الأولى.

المفضل الضبي، المفضليات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، بيروت، الطبعة السادسة.

النابغة الذبياني، ديوانه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر.

نعناع، محمد فؤاد، 1994م، الجود والبخل، دار طلاس، دمشق.

النهشلي، عبد الكريم، الممتع في علم الشعر وعمله: تقديم وتحقيق منجي الكعبي، 1978م، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس.

النوتي، أحمد موسى، 1996م، الصحراء في الشعر الجاهلي، رسالة دكتوراه مضروبة على الآلة الكاتبة، الجامعة الأردنية.

النويري، شهاب الدين أحمد، نهاية الأرب في فنون الأدب، (ت 733 هـ)، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر.

يعقوب، عبد الكريم، 1986، أشعار العامريين الجاهليين، دار الحوار، اللاذقية، ط1.

يموت، بشير، 1934م، شاعرات العرب في الجاهلية، المطبعة الوطنية، بيروت، الطبعة الأولى.

The Hospitality in Pre-Islamic Period Manifested in the Poems

Hamdi M. Mansour*

ABSTRACT

This research deals with the concept of hospitality in Pre-Islamic period as reflected in the poetry.

Hence, it consists of the following topics:

1- The banquets and their facilities such as bowls and cooking pots.
2- Guidance of guests by emblazing the fire of hospitality and the barking of dogs.
3- Receiving the guests with a smile.
4- Singing the praises of being generous.
5- Eulogizing the one who receives the guests while composing satiric poems against the one who refuses to receive the guests.

The conclusion of this research pointed out that poems of hospitality were truthful in portraying the reality of the Arab community.

In fact, neither all the Arabs were noble and openhanded nor they were all stingy. It is also worth noting that the hospitality was a social necessity.

---

* Faculty of Arts, University of Jordan. Received on 22/5/2005 and Accepted for Publication on 5/12/2005.